

معنى قول الله تعالى: ولا تفرقوا

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين،

أما بعد، فقد ادّعى بعض الناس أن الاختلاف في فروع الدين شرّ تمسّكا بقول الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرقوا﴾¹. وهذا الاستدلال ليس بصحيح إذ مراد التفرق في الآية كما سنبينه هو التفرق في أصول الدين - أي العقائد - دون فروعها. الاختلاف في فروع الدين رحمة لهذه الأمة على شرط أن يكون الذي يدعي الاختلاف في مسألة أهلاً للاجتهاد كما هو مبسوط في أبواب شرائط المجتهد في كتب أصول الفقه.

قال عمدة المفسرين الإمام ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ رحمه الله تعالى: «ولا تفرقوا عن دين الله وعهده الذي عهد إليكم في كتبه من الائتلاف والاجتماع على طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والانتهاى إلى أمره»²، ثم استدل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن بني إسرائيل افرقت على ثنتين وسبعين فرقةً، وأنتم تفرقون على مثلها، كلها في النار إلا فرقةً»³، وبه استدل الحافظ ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ رحمه الله تعالى في تفسيره⁴ ومن المعروف بين أهل العلم أن مراد الافتراق في الحديث هو الافتراق في أصول الدين دون فروعها.

قال الحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ رحمه الله تعالى: «ألّف الإمام أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي كتاباً في شرح هذا الحديث، قال فيه: قد علم أصحاب المقالات أنه صلى الله عليه وسلم لم يُرد بالفرق المذمومة المختلفين في فروع الفقه من أبواب الحلال والحرام، وإنما قصد بالذم من خالف أهل الحق في أصول التوحيد، وفي تقدير الخير والشر، وفي شروط النبوة والرسالة، وفي موالاتة الصحابة، وما جرى مجرى هذه الأبواب لأنّ المختلفين فيه قد أكفر بعضهم بعضاً، بخلاف النوع الأول فإنهم اختلفوا فيه من غير تكفير ولا تفسير للمخالف فيه، فرجع تأويل الحديث في افتراق الأمة إلى هذا النوع من الاختلاف، وقد حدث في آخر أيام الصحابة خلاف القدرية من معبد الجهنني وأتباعه، وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة كعبد الله بن عمر وجابر وأنس

¹ سورة آل عمران: ١٠٣.

² «تفسير الطبري» ٥/٦٤٧.

³ أخرجه أحمد في «مسنده» [١٢٢٠٨] وابن ماجه في «سننه» [٣٩٩٣]. قال الحافظ السخاوي في «الأجوبة المرضية» ٢/٥٧٤: «رجاله رجال الصحيح». ومثله في «سنن أبي داود»

[٤٥٩٦] و«جامع الترمذي» [٢٦٤٠] وقال الترمذي: حسن صحيح.

⁴ «تفسير ابن كثير» ٢/٨١-٨٢.

ونحوهم، ثم حدث الخلاف بعد ذلك شيئاً فشيئاً إلى أن تكاملت الفرق الضالّة اثنتين وسبعين فرقة، والثالثة والسبعون هم أهل السنة والجماعة، وهي الفرقة الناجية. ثم سرد أسماءهم وعقائدهم⁵.

قال الإمام خليل أحمد السهارنفوري المتوفى سنة ١٣٤٦ رحمه الله تعالى في شرح الحديث المذكور: «المراد من هذا التفرق: التفرق المذموم الواقع في أصول الدين. أما اختلاف الأمة في فروعها فليس بمذموم بل هو من رحمة الله فإنك ترى أن الفرق المختلفة في فروع الدين كلها متّحدون في الأصول ولا يضلّل بعضهم بعضاً. أما المتفرقون في الأصول فيكفّر بعضهم بعضاً»⁶.

وقال الإمام أبو بكر الجصاص الرازي المتوفى سنة ٣٧٠ رحمه الله تعالى في تفسير قول الله تعالى ﴿لَا تَفْرَقُوا﴾: «النهى منصرف إلى أحد وجهين: إما في النصوص أو فيما قد أقيم عليه دليل عقلي أو سمعي لا يحتمل إلا معنى واحداً وفي فحوى الآية ما يدل على أن المراد هو الاختلاف والتفرق في أصول الدين لا في فروعها»⁷.

قال الإمام ابن عطية الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٦ رحمه الله تعالى: «هذا هو الافتراق بالفتن والافتراق في العقائد، وأما الافتراق في مسائل الفروع والفقهاء فليس يدخل في هذه الآية... وقد اختلف الصحابة في الفروع أشد اختلاف، وهم يد واحدة على كل كافر»⁸.

قال الإمام القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ رحمه الله تعالى: «وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع، فإن ذلك ليس اختلافاً، إذ الاختلاف ما يتعدّد معه الائتلاف والجمع، وأما حكم مسائل الاجتهاد، فإن الاختلاف فيها سبب لاستخراج الفرائض ودقائق معاني الشرع، وما زالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث، وهم مع ذلك متآلفون»⁹.

فظهر من كلام العلماء أن معنى قول الله تعالى في الآية المذكورة أنه نهى عن التفرق في أصول الدين. أما اختلاف الأمة في فروع الدين فهو رحمة. فالاتحاد الحقيقي هو الاتحاد على أصول الدين والذين يزعمون أن الاتحاد هو الاتحاد على الفروع فقول باطل.

وقبل الختام أردت أن أنقل كلاماً نفيساً للعلامة الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨ رحمه الله تعالى في هذا الموضوع. قال: «والاختلاف في الدين ثلاثة أقسام: الأول: في إثبات الصانع ووحديته، وإنكاره كفر. والثاني: في صفاته ومشيبته، وإنكارهما بدعة. والثالث: في أحكام الفروع المحتملة وجوها، فهذا جعله الله رحمة وكرامة للعلماء»¹⁰.

⁵ «مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود» ص ١١٦٥ - ١١٦٦.

⁶ «بذل المجهود في حل سنن أبي داود» ٦/١٣.

⁷ «أحكام القرآن» ٤٤/٢.

⁸ «المحرر الوجيز» ٤٨٤/١.

⁹ «الجامع لأحكام القرآن» ٥/٢٤١.

¹⁰ ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» ١/٦٥ برقم ١٥٣.